مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية
ISSN 2170-0370/E-ISSN 8127-2710
المجلد12-العدد02-2021 ،ص ص309-323

مصادر المعرفة التاريخية حول التراث الإباضي بالجزائر

في أعمال المستعرب الفرنسي إميل ماسكاريه(Emile Masqueray)

دراسة بيبليوغرافية

Sources of historical knowledge about the Ibadith heritage in Algeria In the Works of the French Arabist Emile Masqueray: A Bibliographic Study

حنيفي هلايلي[1] ، صورية متاجر[2]

[1] جامعة سيدي بلعباس(الجزائر)hanifi_andalous@yahoo.fr

[2] جامعة سيدي بلعباس(الجزائر)sorayabiblio@gmail.com

تاريخ الاستلام : 2021/04/30 ؛ تاريخ القبول : 2021/05/16 ؛ تاريخ النشر : 2021/06/07

الملخص

تعالج هذه الدراسة مصادر المعرفة التاريخية حول التراث الميزابي و المذهب الإباضي وحلقات العزابة والكتب والمكتبات والشيوخ في منطقة ميزاب، من خلال دراسات المستشرقين الأوروبيين خلال فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر(1830-1962). و كمنطلق لمحور هذه الدراسة تم التركيز على الذي فتح مجال الأبحاث حول التراث الإباضي المستشرق الفرنسي إميل ماسكاريه. استخدم هذا المستعرب المكان و معاينته جغرافيا عبر الرحلة و الاستكشاف من أجل التحقيق من الخبر التاريخي. وقد كلفته الإدارة الاستعمارية الفرنسية ممثلة في لجنة الرحلات و المهمات. قام ماسكاريه بالتعريف عن حالات المجتمع الإباضي في منطقة ميزاب وتنظيماته الدينية والاجتماعية والعمرانية والتجارية، من خلال سلسلة من المحاضرات ألقاها في المحافل العلمية بفرنسا.

الكلمات المفتاحية : المعرفة التاريخية، ماسكاريه، الإستشراق، الإستعراب، الجزائر، فرنسا.

Abstract

This study deals with the sources of historical knowledge about the Mozabite heritage, the Ibadi school of thought, the singles rings, books, libraries and sheikhs in the M'zab region, through studies of European orientalists during the period of the French occupation of Algeria (1830-1962). As a starting point for this study, the focus was on what opened the field of research on the French Orientalist Ibadith heritage, Emile Masqueray. This Arabist used the place and surveyed it geographically through the journey and exploration in order to investigate the historical news. It was assigned by the French colonial administration represented by the Committee for Excursions and Missions. Masqueray made acquaintance with the cases of the Ibadi community in the M'zab region and its religious, social, urban and commercial organizations, through a series of lectures he gave in scientific forums in France.

Keywords : Historical knowledge, Masqueray, Orientalism, Arabism, Algeria, French

المنارة للاستشارات

اعتمدت دراسات المستشرقين الأوروبيين خلال فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر(1830-1962)، على مصادر المعرفة التاريخية حول التراث الميزابي و المذهب الإباضي وحلقات العزابة والكتب والمكتبات والشيوخ في منطقة ميزاب . ومن أهم هذه الدراسات ما كتب عن المجتمع الجزائري و القبائل المنتشرة في جغرافية الجزائر إبان فترة المقاومة الجزائرية. وقد نشرت دراسات في مجلات متخصصة مرفقة بوثائق وبحوث ميدانية ذات توجه اثنوغرافي أنثروبولوجي، كما عكف هؤلاء المستعربون على تحليلها و دراستها بمفاهيم خاصة و نظريات استعمارية.

رصد اهتمامات الاستعراب الفرنسي خلال الفترة الاستعمارية أهمية التراث الإباضي من خلال شيوخ المذهب وعلمائه وإنتاجهم الفكري، ومواقع المكتبات وأهم الأرصدة الموجودة في منطقة وادي ميزاب[1]. ومن بين أهم المستشرقين الفرنسيين الذين فتحوا مجال الأبحاث حول التراث الإباضي المستشرق الفرنسي ماسكاريه.ما هي الأليات التي اعتمدها هذا المستشرق في دراسة المذهب الإباضي؟ كيف نجح في اختراق المجتمع الإباضي؟ هذه التساؤلات ستجيب عنها الدراسة وفق منهج بيبليوغرافي ، مركزة على الوسائل و الأهداف المتبعة ضمن منظومة الإستشراق الفرنسي خلال فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر.

الجمعيات العلمية الفرنسية: الدور العلمي و الثقافي والاجتماعي.

تأسست الجمعيات العلمية لشمال أفريقيا من طرف المعمرين بعد احتلال الجزائر سنة 1830 مباشرة، و تونس (1881)، و المغرب (1912). وارتبط تأسيسها بالاستيطان الأوروبي، بواسطة مبادرات فردية، انصب جل اهتمامها بتاريخ و أثار المنطقة. كما عمقت معارفها باحتضان مؤتمر 1905 و 1935.[2]

إن تاريخ المعرفة الإنسانية هو تاريخ الجهد الذي يبذله البشر من أجل إدراك وعي خبراتهم، من أجل تطوير حياتهم، مما يسمح بتنظيم اجتماعهم و اقتصادهم و حتهم. لقد درجت اتجاهات أيديولوجية أوروبية شددت في مرحلة السيطرة الاستعمارية على اعتبار الحضارتين اليونانية و الرومانية معجزة و أماً وحيدة للمعارف الإنسانية التي انطلقت منها

المنارة للاستشارات

أوروبا الحديثة، وأن الحضارة الغربية هي رسالة تمدين خاصة بـ" الرجل الأبيض ." كانت النخبة المثقفة الفرنسية المهاجرة إلى الجزائر تتكون بالأساس من العسكريين و الإداريين و رجال الدين، يضاف إليهم المنفيين و السجناء السياسيين خاصة بعد أحداث ثورة 1848 بفرنسا[3]. إن ما يميز الأسطوغرافيا الاستعمارية التي عالجت تاريخ الجزائر المعاصر (1830 – 1954) هو ارتباطها بأرشيف الإدارة الاستعمارية، ارتباطا يجعلها تعيد إنتاج تحاليلها المختلفة وخلاصاتها العامة.

تعد جمعية التجارب و الأبحاث التي تأسست ببجاية سنة 1837 أولى الجمعيات الفرنسية في جزائر الاحتلال، وهذا بعد سقوط المدينة في 29 سبتمبر 1833 إثر حملة الجنرال تريزل(Camille Alphonse Trézel) (1780-1860) . لم تعمر الجمعية طويلا بسبب انتقال مؤسسها عبر مناطق الجزائر بسبب ظروف الاحتلال و ما رافقته التحولات السياسية و العسكرية، و لكنها فتحت الباب على مصراعيه أمام طموحات العسكريين للاستكشاف الأثري لمدن الجزائر. والجدول التالي يوضح الجمعيات العلمية بالجزائر و توزيعهم الجغرافي.

جدول رقم (1) جرد إحصائي للجمعيات العلمية الفرنسية بالجزائر 1830-1962[4]

اسم الجمعية	مكان الجمعية	تاريخ التأسيس
الجمعية الزراعية	الجزائر	1840
الجمعية الطبية	الجزائر	1847
الجمعية الأثرية لقسنطينة	قسنطينة	1852
الجمعية التاريخية الجزائرية	الجزائر	1856
الجمعية الجغرافية	الجزائر	1857
الجمعية الأثرية لشرشال	شرشال	1860
جمعية علوم الجزائر	الجزائر	1863
أكاديمية هيبون	عنابة	1865

المنارة للاستشارات

جمعية الفنون	الجزائر	1868
الجمعية الجغرافية لوهران	وهران	1878
الجمعية الجغرافية لقسنطينة	قسنطينة	1883
الجمعية الجزائرية من أجل حماية المعمرين	الجزائر	1883
لجنة قدماء الجزائر	الجزائر	1905
الجمعية التاريخية الطبيعية لشمال أفريقيا	الجزائر	1909
الجمعية الأثرية لتبسة	تبسة	1935
الجمعية الأثرية لسطيف	سطيف	1935
أصدقاء قدماء تلمسان	تلمسان	1952

مثلت الدراسات التاريخية و الاثرية للحضارة الرومانية في شمال أفريقيا بالنسبة للفرنسيين حقل اهتمام، و اللافت للانتباه أن هذا الاهتمام راجع بالدرجة الأولى إلى ثلاثة اعتبارات:

1- اهتمام ذو محتوى أيديولوجي ، مفاده أن فرنسا الاستعمارية وريثت روما و ما خلفته من أثار و امتداد طبيعي لحضارته القديمة.

2- محتوى ثقافي له علاقة مباشرة بالاستكشاف الأثري للنصوص اللاتينية القديمة التي يتقنها الوافدون من أوروبا.

3- الاهتمام بالآثار الرومانية و العكوف على دراستها و فهرستها.

جدير بالاهتمام أن الفترة الوسيطة الإسلامية لقيت إقبالا لا بأس به من طرف بعض المستعربين، الذين قاموا بترجمة النصوص العربية إلى الفرنسية و التعريف بالمخطوطات في شتى حقول المعرفة. واضح من اهتمام اللجان العلمية الفرنسية أنها حافظت على هذا التراث بواسطة الذاكرة و المنشورات و تأسيس المتاحف المحلية في عديد مناطق الجزائر خلال الفترة الاستعمارية، كما قامت الجمعية التاريخية الجزائرية

و لسان حالها المجلة الأفريقية بشر أعمال تراث شمال أفريقيا في شتى حقول المعرفة، و هذا على حساب فدرالية الجمعيات العلمية لشمال أفريقيا (FSSAN) ما بين 1935-1939.

المنارة للاستشارات

عقت الفدرالية سلسلة من اللقاءات العلمية ، اهتمت جميعها بتراث شمال أفريقيا، و الجدول التالي يوضح أهم تلك اللقاءات العلمية:

جدول رقم (2) مؤتمرات فدرالية الجمعيات العلمية لشمال أفريقيا

المؤتمر	تاريخ و مكان الانعقاد	النشرية
المؤتمر الأول	الجزائر ما بين 10-11 جوان 1935	R.A, n°76, 1935,454p.
المؤتمر الثاني	تلمسان ما بين 14-17 أبريل 1936	R.A, n°79, 1936,1090p.
المؤتمر الثالث	قسنطينة ما بين 30-1 أبريل 1937	R.A, n°81, 1937,761p.
المؤتمر الرابع	الرباط ما بين 10-20 أبريل 1938	2 Volumes, Alger, 1939, 915p.
المؤتمر الخامس	تونس ما بين 6-8 ابريل 1939	لم تنشر الأعمال

واضح من عرض أعمال مؤتمرات فدرالية الجمعيات العلمية لشمال أفريقيا المنعقدة بمجال المغارب في الفترة الممتدة ما بين 1935 و 1939 أنها غطت جوانب معرفية متعددة المشارب. كما أنها تجاوزت أفق البحث العلمي ذو أحادية التخصص لتفتح المجال لتخصصات متنوعة ، منها ما برز في المؤتمر الثاني المنعقد بمدرسة تلمسان التي كانت تحت إدارة وليام مارسيه(William Marçais) (1872-1956). خلال هذا المؤتمر تم السماع لـ 75 محاضرة لامست 10 مجالات معرفية منها: الجغرافيا، العلوم، ما قبل التاريخ، الأثار، التاريخ، الأثنوغرافيا، علم الاجتماع، اللغات، الأدب العربي،الأنثروبولوجيا. و الملاحظ على الدراسات المنجزة إثارة الإهتمام بالمعالم الأثرية للمدن المغاربية مثل قرطاج و هيبون(عنابة)، و ألطافا(أولاد ميمون بتلمسان)، و لا لة مغنية. كما ركز المؤتمرون خلال هذا المجمع العلمي على حاضرة تلمسان في الفترة الوسيطة و ما خلفته من أثار الإسلامية.

****

المنارة للاستشارات

التراث الإباضي في أعمال إميل ماسكاراي(Emile Masqueray)(1843-1894):

" توفي ماسكاريه بسبب نوبة قلبية مفاجأة، إنها خسارة كبيرة بالنسبة لمدرسة الآداب بالجزائر و الدراسات الأفريقية عامة "[5] ، بهذه العبارات بدأ برنار أوغسطين(Bernard Augustin) تأبين صديقه ماسكاريه غداة وفاته. واضح من عرض إنجازاته البحثية في الدراسات التاريخية و الجغرافية و اللغوية حول الجزائر، جعلت منه رائد الدراسات الأمازيغية ردحا من الزمن. ففي البداية استخدم ماسكاريه المكان و معاينته جغرافيا عبر الرحلة و الاستكشاف من أجل التحقيق من الخبر التاريخي. وقد كلفته الإدارة الاستعمارية ممثلة في لجنة الرحلات و المهمات[6] باستكشاف منطقة ميزاب في صائفة 1878. و دامت رحلته مدة شهرين، استغل خلال فترة وجوده بالمدن الميزابية السبعة[7]، قواه الفكرية و خبرته كمستكشف لجمع الوثائق المتعلقة بالمكان و علاقة الجماعة الميزابية بالمذهب الإباضي. و بالرغم من إقراره بصعوبة المهمة ، وهذا راجع بالدرجة الأولى إلى سرية الطائفة، إلا أنه تمكن من العودة بكتب مهمة منها سير أبي زكريا. وفي رسالة بعث بها إلى كاتب الجمعية الجغرافية لمدينة الجزائر **هنري دوفريي**(Henri Duveyrier)[8] يخبره فيها بأنه سيعود من رحلته بمنطقة ميزاب –التي استغرقت زهاء 60 يوماً زار خلالها المدن التالية: متليلي، القرارة وبريان– بوثائق ثمينة أهمها:

- سير أبي زكريا.[9]
- سير المشايخ.
- كتاب العبادات لأبي زكريا. و وثائق حول المذهب و المجتمع الإباضي في منطقة ميزاب.

وخلال رحلة **ماسكاريه** إلى الصحراء الجزائرية ،أوضح دور علماء وادي ميزاب في تشجيع العلم و المحافظة على الكتب والمكتبات وتشجيع اقتنائها. [10] كما قام **ماسكاريه** بالتعريف عن حالات المجتمع الإباضي في منطقة ميزاب وتنظيماته الدينية والاجتماعية

المنارة للاستشارات

والعمرانية والتجارية، من خلال سلسلة من المحاضرات ألقاها في المحافل العلمية بفرنسا سنة 1879.[11]

اهتم ماسكاريه باللغة العربية و آدابها منذ أن تعرف عليها و تعلم قواعدها و نصوصها سنة 1872 على يد محمد بن سيدي سعيد حجة، مترجم بالمكتب العربي بالعاصمة، و علي بن عبد الرحمان بن اسماعيل ،وكذلك الأمازيغية و أدبياتها من جهة ، وكمصدر للمعرفة التاريخية من جهة أخرى. وقد أكد على ضرورة الاهتمام بالأسطورة و ما يتعلق بها ،من تقاليد و عادات و أسلوب عيش و أفكار و معتقدات و قيم اجتماعية. ففي رسالة مؤرخة في 4 أوت 1878 ،أرسلها إلى وزير التعليم الشعبي الفرنسي أجنيور باردو(Agénor Bardoux)[7]، يخبره فيها بأنه عثر على نسخ تحتوي على قانون خاص بجماعة بني ميزاب إحداها مكتملة وجدت في القرارة و أخرى غير مكتملة و ناقصة وجدت في كل من بنورة و العطف. و في عرضه للقانون تحدث عن علاقة بني ميزاب بالمذهب الإباضي، و تاريخ المذهب في بلاد المغارب، و حملة العلم[8] الذي ربطوا المنطقة بأصول المذهب الإباضي و العلاقة المذهبية بينهم و بين البصرة معقل المذهب و الدعوة[9]، و تاريخ الدولة الرستمية التي تبنت تعاليم المذهب، أما القانون فملخصه يتناول: القتل، النفي ،شتم العلماء، ضرب الإباضي و العربي، الاستهزاء بجباة الضرائب و العشور، و ما يلزمه القانون تجاه المخالفين من التغريم و النفي[10].

مستشرق من طراز **إميل ماسكاراي** الذي انصبت جل أبحاثه حول تاريخ منطقة وادي ميزاب والمذهب الإباضي. أثري، مؤرخ، لغوي، وأثنوغرافي، رائد الدراسات الأنثروبولوجيا المتعلقة بالمجتمعات المغاربية ، تعده الدراسات الإستشراقية الفرنسية أول من نظم التعليم العالي في الجزائر، حيث عمل كأستاذ للتاريخ بالجزائر، ليصبح بعدها أستاذ كرسي في تاريخ شمال أفريقيا القديم في المدرسة العليا للآداب بالجزائر العاصمة ابتداء من سنة 1880. كلفته وزارة التعليم في مهمات رسمية إلى مناطق الأوراس و ميزاب ما بين 1875-1879، و على إثرها نظم التعليم في مدارس خاصة بالجزائريين في هذه المناطق.

المنارة للاستشارات

نشر عديد المقالات في المجلة الأفريقية منذ العام 1876، تخص معظمه التقارير الأثرية حول المدن الجزائرية في القديم مثل : سريانة و طبنة و طولقا و بلزمة. كما نشر في نشرية المراسلات الأفريقية دراسات تخص اللغة الأمازيغية بلهجاتها المنتشرة في جغرافية الجزائر كالقبائلية و الشاوية و الميزابية و الترقية ، و ضمها بتقارير أثرية في غاية الأهمية. و مما يلاحظ على إنجازاته العلمية أنه بدأ في نشر أعماله حول تاريخ أثار المدن القديمة في شمال أفريقيا في المجلة الأفريقية منذ العام 1878.

عند تنظيم التعليم العالي بالجزائر العاصمة سنة 1880، تقلد **ماسكاريه** منصب أستاذ كرسي التاريخ و تاريخ شمال أفريقيا، كما كلفه الوزير الفرنسي بول بير(Paul Bert)[11] بإدارة مدرسة الآداب، و بسبب سياسة التفتح العلمي التي أبداها مدير الدراسات العليا بوزارة التعليم الفرنسي ألبير دامو(Albert Damont)(1842-1884).تمكن ما سكاريه من تأسيس و إدارة تحرير نشرية المراسلات الأفريقية سنة 1882[12]. حاول من خلال هذه النشرية أن ترتقي في مصف أقرانها من المجلات العلمية الفرنسية بالجزائر . و عمل على نشر عديد البحوث ذات الطابع التاريخي و الأثري و اللإثنوغرافي و اللغوي.

نستشف من خلال أبحاث **ماسكاريه** في التاريخ الديني و التصوف أنه حاول إيجاد السبل لربط شمال أفريقيا القروسطية بأفريقيا الرومانية القديمة ، معرجا الحديث في سياقات عقائدية مثل الدوناتية و السيركومسيليوناس[13]. و يعد كتابه حول تأسيس المدن عند الشعوب المستقرة بالجزائر أحسن كتاب تحصل على إثرها على درجة الدكتوراه في الآداب، – التي نشرت سنة 1886– مركزا الحديث على ثلاث مستويات بحثية: قبائل جرجرة، الشاوية بالأوراس، وبنو ميزاب في الصحراء، مركزا على جوانب معرفية للمؤسسات السياسية و القانونية و المدنية و الثقافية، و معرجا الحديث عن التقاليد و العادات. قارن **ماسكاريه** بين التاريخ العام و التاريخ المحلي، بين التاريخ الروماني القديم و الحقائق المغاربية في القرن التاسع عشر ، ليصل إلى حقيقة تاريخية مردها دور الإسلام في إثبات هوية المغاربة كأمة ذات نسيج متكامل. حري بنا أن نميز من خلال هذا البحث الأكاديمي أننا أما مؤرخ محترف يمزج

المنارة للاستشارات

الجغرافيا ليصل إلى تحليل عديد القضايا، مدققا عباراته بمصطلحات علمية ذات بعد سوسيولوجي بحث، و موثق بتحاليل و نظريات قادته كمغامر و مستكشف لحواضر جزائرية . يبدأ كتابه بحوار استقدمه مما كتبه المؤرخ ابن خلدون و هو يزاوج ما بين الفاتح عقبة بن نافع و الكونت جوليان إبان الفتح الإسلامي للمنطقة من طرف العرب، لينتهي به المطاف بسؤال ما هو مستقبل فرنسا في الجزائر؟.

من خلال كتابه (تأسيس المدن) لخص تاريخ المغارب و أبان بفهم معرفي عميق أن الجغرافيا تساعدنا في فهم خصائص المنطقة، و بين أن شمال أفريقيا التي تعرضت منذ القديم لنزوح اللاجئين و للغزو المستمر في فترات متعددة، و بأنها قريبة التماس من أوروبا بالنسبة لإسبانيا و إيطاليا. و في هذا السياق يقول بصريح العبارة: " تبدو الجزائر غريبة، و لكنها عجيبة منذ الوهلة الأولى، رجالها دائما بسيوفه بمقبض اليد، و جبالها البارزة للعيان، و مدنها البيضاء، و بحياء رجاله، خليط من أجناس الشرق و الشمال، لا يهابون الموت، متدينين كالقدسين، و شجعان في ساحة الوغى كالأسود، إنهم اليوم تحت قبضتنا، هذه الشعوب البدائية تموت الآن تحت أقدام حضارتنا كما تموت أوراق الأشجار القديمة"[14].

نستشف من خلال هذه العبارات أن المستعرب الفرنسي يحاول ترسيخ فكرة أفريقيا الفرنسية بواسطة أدوات التعليم و المدارس، و ربط الصحراء بالمتروبول الفرنسي، و الحديث عن خلق قفزة نوعية في مجال الاستغلال الزراعي ذو النزعة الاستعمارية. أراد **ماسكاريه** من هذا كله طرح فكرة جزائر فرنسية بالتوازي مع سياسة بوجو(1784–1849)(Thomas Robert Bugeaud) الرامية إلى رفع شعار الجزائر بالسيف و العربة ، و لكن خلافا له في الوسائل رفع **ماسكاريه** شعار الجزائر بالكلمة و القلم[15]. كما بين الدور العلمي و الأهمية الفكرية لمدرسة الآداب في تكريس الهيمنة الثقافية من خلال تغير بلد توقفت فيه معالم الحضارة منذ خمسة عشر قرنا حسب اعتقاده. [16]

المنارة للاستشارات

إن العمل البيبليوغرافي الذي أنتجه **ماسكاريه**، يدل في حقيقة الأمر و بعيدا عن كل الاعتبارات، أننا أمام شخصية عبقرية اقتحمت عالم التراث الجزائري من الباب الواسع بفضل معرفته للغة العربية و اللهجات الأمازيغية، وقد ركز في ابحاثه على دراسة الأطر المعرفية للتنوع و التعدد الثقافي في جزائر الاحتلال، هذه التقاطعات المعرفية في المجالات و الفضاءات المكونة لشبكة الاستشراق الفرنسي المشفوع بنظرية الأخذ و العطاء، و المرتبط بالفكر الاستعماري الهدام للثقافة و الهوية تسعى من أجل الاندماج و الانصهار في حضارة الأخر. و الجول التالي يوضح لنا أهم البحوث المنجزة من طرف **ماسكاريه** و المنشورة في المجلات الاستعمارية.

جدول رقم(3) الأبحاث المنشورة في المجلات الفرنسية للمستشرق ماسكاريه:

المجلات	عدد المقالات	مجالات الاهتمام المعرفي
Revue africaine,	7	أثار ، تاريخ قديم، جغرافيا
Revue politique et littéraire	1	تاريخ، لغويات، أثنوغرافيا
Bulletin de correspondance africaine	17	لغويات، تاريخ شمال أفريقيا القديم، تقارير أثرية
Bulletin. Sociologie. .normande de géographie	4	لغويات، سكان، أثنوغرافيا، جغرافيا
Recueil des notices et mémoires de la Société archéologique de Constantine	1	تاريخ و أثار شمال أفريقيا في القديم
Bulletin de la Société de géographie de Paris	03	رحلات، لغويات،إثنوغرافيا
Bulletin de la Société de géographie commerciale de Paris	02	رحلات، صحراء، تأبينات.
Journal des Débats	13	أثنوغرافيا، تقاليد و عادات سكان الجزائر، تقارير و رسائل، شخصيات.
المجموع	48	

المنارة للاستشارات

ناقش **ماسكاريه** أطروحة الدكتوراه حول تأسيس المدن عند الشعوب المستقرة في الجزائر ، وقد التي نشرت بباريس سنة 1886. و نستشف من هذه الدراسة أن منطقة القبائل كانت حقلا لتجارب المستعربين الفرنسيين منذ بداية الاحتلال، إذ صرح في إحدى دراساته حول هذا المجال المعرفي ما نصه: " إذا أردنا في فضاء جيلين أن تصبح منطقة القبائل فرنسية، و لكي يتحقق ذلك، يجب أن نضع في كل قرية معلم." وفي السياق نفسه أكد ما نصه: " من واجب فرنسا محاربة كل أشكال الدين الإسلامي، عدونا الأبدي." [17] طوال حياة أبحاثه و هو يتجول في ربوع الجزائر مستكشفا و مدونا لملاحظاته على شكل تقارير علمية استفاد منها الجيل الذي جاء بعده لإكمال مسيرته العلمية ذات الطابع الاستعماري.

عمل **ماسكاريه** أستاذا بمدرسة الجزائر ما بين1873-1875، وساهم في تحرير عديد الدراسات في المجلات الفرنسية المتخصصة منها المجلة الإفريقية بـ 14مقال مست مجالات حقول المعرفة كالتاريخ و علم الآثار و الأثنوغرافيا و اللغويات و الجغرافيا. كما أنجز أطروحة دكتوراه حول المدن والسكان المستقرين بالجزائر منها مدن ميزاب حيث تحدث عن القوانين والنشاط العمراني والتاريخ الديني عند الإباضية في منطقة ميزاب . [18] وبالنظر لمعرفته بالمناطق الصحراوية كلفته الإدارة الفرنسية من خلال الحاكم العام الفرنسي شانزي (Alfred Chanzy)(1873-1879)،ووزير المعارف الفرنسي، للقيام بزيارة ميدانية لمنطقة الأوراس ووادي ميزاب في 13 أبريل 1878.

و في مجال التأبينات ذكره أفريد رامبو(Alfred Rambaud)[19] بأنه رائد الدراسات الأفريقية بدون منازع ، و أن تأليفه الموسوم بـ ذكريات و رؤى أفريقية بين على عبقرية الرجل في مجال الرحلة و الاستكشاف، حيث ألم بحقول معرفية عديدة كالتاريخ و المغامرة و الأثار و الأثنوغرافيا و اللغات المحلية و علم النقوش.و حسب رامبو فإن **ماسكاريه** راسل الإدارة الاستعمارية في شهر ماي 1875 لزيارة منطقة الأوراس و حضر من أجل ذلك برنامج عمل اتضحت فيه عبقرية الرجل كأكاديمي، و خطة برنامجه تضمنت ما يلي :

المنارة للاستشارات

1- دراسة أصول القبائل(الشاوية) من الناحية الاثنوغرافية.

2- تحديد الأطر الرئيسية لهجرة هذه القبائل و أهم المحطات التي عايشتها من الناحية التاريخية.

3- هندسة و معرفة لغة القبائل(الشاوية) و مقارنتها بلغة القبائل و التماشق(التوارق).

4- إنجاز جدول يرسم معالم و عادات الشاوية و مقارنتها بمجتمع القبائل.

5- تحديد المواقع الأثرية لفترة ما قبل التاريخ، و التي عرفت بكثرتها في منطقة الأوراس.

ويخلص **ماسكاريه** من خلال البحوث الميدانية التي قام بها عند انتهاء مهمته الاستكشافية العلمية، بأن منطقة الأوراس كانت تقاوم الأجنبي باستمرار و يقصد الرومان و الوندال و العرب الفاتحين. كما أبرز رامبو صعوبة مهمة **ماسكاريه** التي شبهها بالأعجوبة رغم الصعوبات التي ألمت بمهمته البحثية؟، و أنه تناول جوانب التاريخ و الأثنوغرافيا و دراسات الأثار الرومانية التي يعتبر الرائد الأول الذي مهد لها عبر سلسلة من البحوث المنشورة. لقد قام برحلة مماثلة إلى منطقة ميزاب رغم أن المنطقة لم تدخل في إطار الحماية الفرنسية إلا في سنة 1882[20]. من هنا يتضح جليا أن المستعرب الفرنسي يحاول إقناء القارئ بأن المنطقة تتحضر نفسيا و تلقائيا لقبول الاحتلال الفرنسي .

تطرق **ماسكاريه** في محاضرة سماها بمذكرات و ملاحظات في باريس في شهر نوفمبر 1879، أبرز فيها تاريخ بنو ميزاب و أنه من السهولة بمكان معرفة خصائصهم الفزيولوجية على غرار باق سكان الجزائر، و أن اليهود القاطنين معهم منذ قرون يسمونهم بالمؤابيين.

يرى **ماسكاريه** أن هذه الجماعة هي أخر من يعتنق المذهب الإباضي في تاريخ الأمة الإسلامية، و يسميهم الجزائريون بالخمسية مقارنة لهم بالمذهب الخامس. لا شك في أن **ماسكاريه** يستعمل حدسه كجغرافي ليتحدث عن المدن الخمس المقدسة عند الميزابيين و مستوطناتهم الثلاث في متليلي و غرداية و القرارة، و أن نظامهم الاجتماعي المشكل تحت تأطير الحلقة و العزابة حال دون تفتيت جماعتهم عبر التاريخ. و في الجانب الثقافي يحافظ هؤلاء على تعلم اللغة العربية و القرآن الكريم و قواعد المذهب الإباضي، و أنهم يمارسون

المنارة للاستشارات

التجارة بذكاء لافت للانتباه، و أينما حلوا بمدن الجزائر و خاصة في المناطق التلية فإنهم ينصهرون بكل سهولة في التعامل مع الساكنة[21].

لعل أبحاث و إنجازات المستعرب الفرنسي **ماسكاريه** حول التراث الإباضي بالجزائر تعد اللبنة الأولى للتعريف بجماعة بني ميزاب و بتراثهم الفكري و العقائدي ، و بعاداتهم و لغتهم الزناتية في فضاء الصحراء الجزائرية، كما يمثل نقطة انطلاق نحو فهم خصوصيات السكان بالجزائر خلال الفترة الاستعمارية تحت غطاء الرحلة و الاستكشاف، و لكن الحقيقة هي محاولة معرفة كوامن الضعف و القوة للأمة الجزائرية خلال هذه الفترة الحرجة من تاريخها. إن مسار حركة التاريخ الإباضي بالجزائر مليئى بالأمجاد الفكرية و أن الإباضيين هم جزء من أمة الجزائر ماضيا و حاضرا و مستقبلاً.

الهوامش:

(1) من بين هؤلاء المستعربين الفرنسيين : كلاسنتي موتيلتنسكي (1857 -1907) الذي أنتج تراثاً غزيرا في مجال ترجمة النصوص العربية و الاهتمام باللهجات البربرية وخاصة في منطقة وادي ميزاب وجزيرة جربة بتونس وجبل نفوسة بليبيا. ساعده في ذلك معرفته الجيدة باللغتين العربية والأمازيغية وقد لاحظ كثير من المهتمين بالتاريخ الإباضي أن الفضل يعود لهذا المستشرق في ترجمة فهرسة الشيخ أبو القاسم بن إبراهيم البرادي حيث تحتوي فهرسته على ثمانية كتب تضم تراث المذهب الإباضي منذ بداية الدعوة إلى غاية القرن التاسع الهجري، الرابع عشر الميلادي.

(2) كان انعقاد مؤتمر المستشرقين الدولي الرابع عشر بالجزائر سنة 1905 أحد المظاهر البارزة لتلك الانطلاقة. كما يتميز العهد الاستعماري بالبحث المستمر في مختلف المجالات، في شكل جماعي، مما ساعد على إخراج موسوعات ذات قيمة تاريخية لا تفنى بسهولة. وتشمل هذه الأعمال الجماعية مشروع (اكتشاف الجزائر العلمي) ومشروع الاحتفال المئوي بالاحتلال، وبحوث جامعة الجزائر بمختلف مدارسها وكلياتها ومعاهدها، ولجنة دراسة الأوضاع الاسلامية، ولجنة ترجمة الكتب العربية إلى الفرنسية. اعتبرت البحوث التي صدرت عن مؤتمر المستشرقين الرابع عشر (الجزائر 1905) ضمن هذه الأعمال العلمية الجماعية أيضا. فقد انتهى المؤتمر بإصدار وقائع ودراسات هامة تخص الجزائر ومنطقة المغرب العربي. ومنها بحث لابن أبي شنب عن سند صحيح البخاري في الجزائر، وإجازة عبد القادر الفاسي لبعض الجزائريين. وقد شارك عبد الحليم بن سماية والمختار الحاج سعيد وغيرهما من الجزائريين في أعمال المؤتمر. للتوسع ينظر: أبو القاسم، سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي،..... ج6، الفصل الأول: الاستشراق والهيئات العلمية والتنصير . للتوسع يرجى العودة إلى: أعمال المؤتمر الإستشراقي و أعمال فيدرالية اللجان العلمية لشمال أفريقيا:

المنارة للاستشارات

- Capitaine Jugue," L'œuvre des sociétés savants algérienne et Tunisienne", In, R.A, n°49, 1905, pp463-485.
- Congrès de la fédération des sociétés savantes d'Afrique du nord », In, R.A, n°76, 1935, pp.12-28.

(3) الثورة الفرنسية 1848وتعرف أيضاً بـ ثورة فبرايرمن نتائجها: – تنازل لويس فيليب – إقامة الجمهورية الفرنسية الثانية. الثورة الفرنسية 1848 (révolution de Février)، كانت واحدة من سلسلة ثورات 1848 في أوروبا.

(4) Pierre,Singaravélon, « Aux origines de la francophonie : les associations dans la francophonie »,S.Guillaume,CTHS,2006,pp.63-74.

(5) حول حياته و نشاطه العلمي في الجزائر أنظر نص التأبين أثناء وفاته بسكتة قلبية سنة 1894:

.Bernard, Augustin, « Emile Masqueray », In, R.A, n° 38, 1894, pp. 350-37 –

(6) تأسست هذه اللجنة بمقتضى قرار وزاري مؤرخ في 6 يناير 1874، و قد ضمت اللجنة سبعة و عشرون عضوا في نهاية 1878. وكانت بها ثلاث لجان: لجنة العلوم الطبيعية، و لجنة الآثار و التاريخ، و لجنة الجغرافيا.

(7) المدن الميزابية السبع هي : غرداية، بريان، العطف، بونورة، بني يزقن، مليكة، القرارة.

(8) هنري (1840–1892) مستكشف وجغرافي فرنسي للصحراء الكبرى، اهتم خصوصاً بالطوارق. مهدت رحلته إلى الصحراء الجزائرية الطريق لفرنسا لبسط نفوذها في منطقة التوارق والهقار، ودامت رحلته من 1859–1862، تمكن فيها من تقديم معلومات وفيرة عن توارق الشمال وساهم مساهمة فعالة في تهيئة الأرضية الخصبة لإنجاز معاهدة غدامس، حيث نظمت بعثة ضمت كلا من " ميرشير Mircher " و" بولينياك Polignac " و"فاتون Vatonne" والطبيب "هوفمان Heffman" و" إسماعيل بوضربة " إلى غدامس 1862، وتمكنت من إبرام معاهدة مع زعيم أزجر"اخنوخن" يوم 26 نوفمبر 1862 التي نصت على فتح أبواب التجارة والأسواق للبضائع الفرنسية في بلاد التوارق وحماية المفاوضين الفرنسيين وتقديم العون والمساعدة لهم. للمزيد حول أعماله و إنجازاته كمستكشف للصحراء، ينظر: https://data.bnf.fr/fr/12109796/henri_duveyrier

(9) يعتبر أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة، الإمام الثاني للإباضية، وقد أصبح مرجع الإباضية دون خلاف بعد التابعي جابر بن زيد. بدأ أبو عبيدة زعامة أهل الدعوة بعد موت الحجاج بن يوسف الثقفي عام 95 هجرية واتفق ذلك مع بداية حكم سليمان بن عبد الملك الأموي.

(10) تحدث ماسكاريه في أطروحته عن سير أبي زكريا و تناول بإسهاب تأريخ المذهب الإباضي منذ بدايات التأسيس، وقد لاحظ بأن مجتمع بني ميزاب من بين المجتمعات الأكثر سرية في الإسلام واستعمالهم للتقية تجاه الآخرين، كما أن تاريخ ماضيهم و حاضرهم مستودع في مخطوطات و كتب يحتفظ بها شيوخ المذهب. و يعد ماسكاريه أول المستعربين الفرنسيين الذين استعملوا مصطلح الوهابية الإباضية. للمزيد راجع:

Masqueray, Emile, Chronique, Introduction. XIII. op.cit.

(11) نشرت هذه المحاضرات في نشرية جمعية النورموند الجغرافية:

Masquarey, E, « Les Beni-Mezâb», In, Bulletin. Société de géographie. Normande, Paris, 1880, 65-92.

(7) كاتب و سياسي فرنسي(1829–1897).

المنارة للاستشارات

(8) تتفق المصادر أنهم خمسة رجال وفدوا إلى الإمام أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة بالبصرة، واحد منهم من اليمن وهو أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح، والباقون مغاربة وهم عبد الرحمن بن رستم الفارسي، وعاصم السدراتي، وأبو المنيب إسماعيل بن درّار الغدامسي، وأبو داود القبلّي . درس هؤلاء الطلبة الخمسة على يد الإمام أبي عبيدة مدة خمس سنوات من سنة 135 إلى 140 هـ، ثم اتجهوا جميعا عائدين إلى بلاد المغارب.

(9) يعتبر أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة، الإمام الثاني للإباضية، وقد أصبح مرجع الإباضية دون خلاف بعد التابعي جابر بن زيد. بدأ أبو عبيدة زعامة أهل الدعوة بعد موت الحجاج بن يوسف الثقفي عام 95 هجرية واتفق ذلك مع بداية حكم سليمان بن عبد الملك الأموي.

(10) Emile,masqueray, « Les Kanoun de beni-M'zab »,In, Etudes et documents berbers,13,1995,pp.211-228.

(11) طبيب و رجل سياسي فرنسي .

(12) نشر بنشرية المراسلات الأفريقية (Bulletin de correspondance africaine) 17 دراسة تناولت بالأساس : لغويات، تاريخ شمال أفريقيا القديم، تقارير أثرية.

(13) العقيدة الدوناتية، نحلة مسيحية ظهرت في شمال أفريقيا خلال حقبة الاحتلال الروماني للمنطقة، و جاءت كرد فعل مخالف للكنيسة الكاثوليكية ما بين القرنيين 4 و 5 للميلاد. تنسب إلى اسقف نوميديا دوناتيس الأكبر.

(14) Émile, MASQUERAY, , Paris, E.Deutu, éditeur, 1894, II-VIII. Souvenirs et Visions d'Afrique

(15) أيد بيجو أثناء فترة حكمه للجزائر ما بين 1841-1847 سياسة الاحتلال الشامل ، وطبق سياسة " أرتال الغزو" المبني على التخريب و الدمار. كما رفع شعار: " لا يجب أن نجري وراء العرب، بل يجب أن نمنعهم من أن يبذروا أرضهم، أو يحصدوا محاصيلهم، أو يرعوا مواشيهم.". كان بيجو يحلم بأنه جندي- فلاح، أي بالاستيطان العسكري الجماعي. لاستزادة، ينظر: أجيرون، شارل روبير ، تاريخ الجزائر المعاصر(ترجمة: عيسى عصفور)،ط1، بيروت- باريس، منشورات عويدات 1982، ص 32 و 42.

(16) إن فكرة توقف الحضارة في شمال أفريقيا منذ خروج الرومان(مصطلح العصور المظلمة) ، روج لها علماء مدرسة الآداب و على رأسهم غوتيه في كتابه شمال أفريقيا: العصور المظلمة. يرجى العودة إلى كتابه:

Gautier, Emile Félix, L'islamisation de l'Afrique du nord, les siècles obscurs du Maghreb, Paris, Payot, 1927.432p.

(17) Augustin Bernard « Émile Masqueray », In, n°38, *Revue africaine, 1894, pp. 350-371.*

(18) Masquarey, Emile, Formation des cités chez la population sédentaire de l'Algérie, éd, Ernest leroux, Paris, 1886, pp.57-72/173-203.

(19) رامو (1842-1905)مؤرخ و رجل سياسي فرنسي ووزير التعليم و الفنون الجميلة في سنة 1896

(20) Alfred Rambaud, «Un pionnier d'Afrique : Emile Masqueray »,In, Revue politique et littéraire (Revue bleue), n° 6, 4e série, t. II, Janvier-Juin, 1895.pp.162-168

(21) Masquarey,E,« Les Beni-Mezâb » In,, Bulletin. Société normande de géographie, 1880, pp. 65-92.

المنارة للاستشارات